آراء حول المؤتمر

انطباعات مشاركين حول مؤتمر التربية في سياق ثقافي

مشهور البطران، كاتب ومدرس مقيم في إذنا

انطلق ابتداء من نقطة إسناد مفادها: أن لا تحديث في شأن من شؤون الحياة في غياب التعددية، فغيابها يحيل إلى الركود ويكرس حالة الجمود والتمحور حول الذات.

إن الذهنية التربوية اعتادت على ترسيم العمل التربوي بكل أبعاده وفق نظرية المركز والمحيط: (المركز يصنع السياسات ويضع البرامج الناجزة لتستهلك على أطراف المحيط).

وفق هذا التصور، فإن إمكانية التبادل الثنائي تكون ضعيفة بين طرفي المعادلة، وهذا من شأنه أن يضع عراقيل في مسيرة التطور التربوي ويحد من إمكانية الإفادة من الطاقات البعيدة والمهمشة، ووفق التصور نفسه تصير التربية حقلاً مستقلاً بذاته منفصلاً عن الشأنين الثقافي والاجتماعي.

لدى مقارنة راهنية الواقع التربوي بما لمسناه في المؤتمر، يمكن القول إن المؤتمر التربوي الذي عقده مركز القطان للبحث والتطوير التربوي في رام الله في مطلع آذار الماضي، قدم شيئاً جديداً ومغايراً لما هو مألوف في المناخ السائد، وكان ذلك جلياً في:

- نوعية الأوراق التي قدمت على مدار اليومين، في غناها وتنوعها وملامستها لاحتياجات المعلم الفلسطيني.
- الورش التطبيقية الموازية التي قاربت الفضاء النظري للأوراق المقدمة على شكل فعاليات.
- نوعية الحضور الممثل لأطراف العملية التربوية من معلمين- من محافظات الوطن كافة - ومديرين ومشرفين ومجتمع محلي، إضافة إلى باحثين وأكاديميين ومثقفين، الأمر الذي أغنى الحوار ورفع مستوى ونوعية التثاقف بين المشاركين.

على هذا النحو أصبح الشعار-التربية في سياق ثقافي اجتماعي-الذي أظل المؤتمر طوال اليومين عنواناً حقيقياً لكل صغيرة وكبيرة في أعمال هذا المؤتمر.

أما فيما يخص الأوراق التي قدمت فقد اتصفت بالجدية والحداثة، وعكست درجة عالية لأصحابها من الدربة والمراس في الحقل البيداغوجي، لدرجة أنهم لامسوا الأوجاع والإشكاليات التي تعانيها المدرسة الفلسطينية، ولكن من الجدير الإشارة إلى أن أياً من المتحدثين لم يدَّع البتة أنه يقدم حلولاً شافية أو وصفات ناجزة للعلل والإشكاليات التربوية، بل تجارب قابلة للنقاش ورؤى قابلة للتجريب.

ومما هو جدير بالذكر-أيضاً- أن الأوراق التي قدمت، والورش التطبيقية الموازية لها أكثر هيبة وحضوراً من أن تمثل هنا بقراءة مبسطة، فهي تحتاج إلى جهد كبير لإعادة قراءتها، تلك القراءة النافذة إلى أعماق بنياتها النظرية وانعكاساتها العملية بغية تعميم الفائدة.

وقد ارتأيت أن اختار في مداخلتي هذه ثلاث أوراق كانت الأكثر إثارة للجدل من غيرها.

جاكلين صفير.. أي تربية نريد لأطفالنا هي تسأل دون أن تدعي أنها تملك الإجابة الناجزة عن هذا السؤال، لأنه

> **هل سؤال التنمية الذي يراود الإنسان العربي يمكن التعاطي معه بمعزل عن مناهج التربية المدرسية، هذا هو السؤال الأساس الذي يضع النموذج النمائي في دائرة ا لمشتهى بالنسبة للإنسان العربي الطامح إلى مستقبل أفضل.**

سؤال كبير ومصيري يحيل إلى الحياة بمعناها الواسع، فالتربية بهذا المعنى تعادل الحياة بكل غناها وتشابكاتها مع أسئلة التاريخ والمصير. وفي هذا السياق قدمت مقاربتها المهمة بين نموذجين في التربية الإنسانية؛ أولهما النموذج الكلاسيكي الذي يرى أن:

- المعلم هو محور العملية التعليمية.
- المعرفة متعالية على الطبيعة والتاريخ.
- وهي بالتالي تمنح كهبة من طرف يمتلكها إلى آخر يفتقر لها.

والآخر النموذج النمائي الذي يرى أن:

- الطالب محور عملية التعلم.
- والمعرفة لها معنى وجودي وهي بالتالي تنبني ولا تمنح.

بهذه المقاربة البسيطة بين النموذجين ندرك الهوة الواسعة ليس بين النموذجين فحسب، بل بين سؤالين وإنسانين وحياتين، الأول ارتهن بالنموذج التقليدي بماضويته ومسلماته وقدريته، والآخر راهن على النموذج النمائي بعقلانيته وتجريبيته واستشرافه للمستقبل.

بعد كل ذلك؛ هل سؤال التنمية الذي يراود الإنسان العربي يمكن التعاطي معه بمعزل عن مناهج التربية المدرسية، هذا هو السؤال الأساس الذي يضع النموذج النمائي في دائرة المشتهى بالنسبة للإنسان العربي الطامح إلى مستقبل أفضل.

عبد الرحيم الشيخ.. والتربوي المثقف في ورقته التي قدمها د. عبد الرحيم الشيخ، التي كانت من أكثر الأوراق إثارة للجدل- يتساءل: هل التربوي مثقف؟

نكاد نتلمس الإجابة عن هذا التساؤل المشروع من خلال المداخلة التي قدمها في وصف التربوي المشتهى كمثقف همه الأساس إنجاز مشروعه الثقافي. وطالما أنه مشتهى فهو إذن غير موجود، فالتربوي وفق هذا التوصيف يقرأ نص غيره ويمتثل لخطابات من هم أعلى منه في تراتبية الحاكم والمحكوم. وهذا ما تعنيه عبارة حنا أرانت الذي وصف التربوي "قابلة لا خالقا".

"وبهذا المعنى فالتربوي المشتهى كمثقف هو الذي ينجز نصه التعليمي".

والتربوي "اللامثقف" هو الذي ينجزه النص ويصيره أداة فاعلة وممتثلة لتبرير خطاب السلطة. وعلى هذا النحو يصبح الفعل التربوي فعلاً تبريرياً وسياسياً بامتياز، أطرافه الحكام والمحكومون وأدواته التربويون".

بعد كل هذه التوصيفات والمقاربات للتربوي، فمن هو إذن المثقف؟ هل هو:

- الذاهب بالأمور إلى نهاياتها (الانتحاري).
- الخارج عن نص القبيلة.
- المقوض للمقولات الراسخة، المزلزل لليقينيات.
- الخائن، الذي إن نطق خان وإن أحجم خان.

أم هو الآخر مشتهى وغير موجود، شأنه في ذلك شأن التربوي المشتهى، وبالتالي فإن انوجادهما معاً في صيغة واحدة إيذاناً بانهيار التاريخ وتقويضاً لمفهوم السلطة؟

لم تكن السلطة وحدها من وقف في وجه المثقف، إذ إن تسارع وتيرة التقدم العلمي والتكنولوجي جرد المثقف مهماته الكبرى، وأحالها إلى دائرة العلم، ويرى فوكو- الذي استشهد به عبد الرحيم الشيخ في مداخلته في توصيف المثقف- "أن صيغة المثقف الطليعي مالك الحقيقة والعدالة وضمير المجتمع وممثل الكل قد ولّى وحل محله عصر العالم المتخصص في ميدان محدد ومجال معين."[1]

وبذلك تصير الدائرة التي يناور فيها المثقف المفترض أكثر

ضيقاً بعد أن جرده العلم المتخصص من سؤال الهوية والتاريخ والإرادة ليدفعه شيئاً فشيئاً إلى سؤال الفلسفة القديم.

مالك الريماوي .. السرد كسياق لإنتاج المعنى من أكثر الأوراق التي قدمت في المؤتمر وانتصرت لمفهوم التربية كثقافة هي الورقة التي قدمها مالك الريماوي وحملت عنوان: (السرد كسياق لإنتاج المعنى).

فتح الريماوي في مداخلته آفاقاً جديدة في تعليم اللغة حري بمعلمي اللغة العربية تمثلها وتجريبها في تحليل النصوص القرائية ومقاربتها. فالسرد الذي يمثل حكاية البشرية لا ينطوي على معان ثابتة ومحددة فحسب، بل يمكن أن يستثمر في إنتاج متوالية من المعاني التي بدورها تشكل فضاء لكتابة جديدة يقوم بها الطالب / المعلم.

والنص ليس للقراءة والتحليل فحسب، بل أداة فاعلة لإنتاج المعنى وبيئة للاشتغال الصفي على موضوعة الكتابة، والسرد أيضاً لا يعكس الواقع ويحاكيه بل يصيره من جديد ويحاكمه محاكمة عادلة وفق قوانين الاشتغال النصي.

في تجربته اللافتة التي أجراها على طلاب ومعلمين وعرض مقاطع منها في المؤتمر، عمد الريماوي إلى إدخال شخوصه: الطلاب والمعلمين، في نص مجتزأ ليتمثلوا النهايات التي يرومونها ليس كما جاءت في النص الأصلي، بل كما يعايشونها في واقعهم الاجتماعي والثقافي، ويالها من لحظة جمالية رائعة حين تتكشف – من حيث لا ندري – تلك الأقنعة التي لطالما تلفعنا بها في حيواتنا الصغيرة، بل وتكشف عري الأنماط الثقافية السائدة التي تحرك مصائرنا في هذه الحياة.

ولدى مقاربة ما يحدث في مدارسنا في ما يتعلق بالاشتغال على النصوص الأدبية في مناهج اللغة العربية بما يطرحه الكاتب في ورقته، نجد أن البون شاسع. فالنص التعليمي بالمفهوم الرسمي ينطوي على معنى واحد، ومهمة المعلم الجليلة هي استخراج هذا المعنى وتفسيره وتقديمه للتلاميذ كوصفة جاهزة، وبهذه الطريقة الفجة يتعطل الخيال وتضيع اللحظة الجمالية التي نرومها.

عبد الحليم نمر - معلم من إذنا

لقد كان رائعاً أن يعقد مؤتمر تربوي يضم هذا العدد الكبير من المعلمين والباحثين والمثقفين، أما أن يكون هذا المؤتمر عن تربية في سياق ثقافي فهذا أمر أكثر من رائع، بل هو خارج المألوف على الأقل بالنسبة لنا نحن المعلمين.

من وجهة نظري نجح المؤتمر في طرح خطاب تربوي مختلف جمع بين الثقافي والتربوي والاجتماعي في سياق واحد ما أعطى مصداقية لشعار المؤتمر الأساس " التربية في سياق ثقافي " .

وبخصوص المداخلات الفكرية والثقافية والورش التطبيقية، فقد كانت مدهشة لنا بما حملته من معان سيكون لها أثر في ممارساتنا التربوية، وعلى سبيل المثال لا الحصر، أورد هنا بعض الأفكار التي أثرت في كمعلم وخلقت لدي انطباعاً بضرورة تغيير اتجاهاتنا ومواقفنا لتعليمية:

- جاكلين صفير: (إن المعلم منظم ومساند لا ملقن، وإن ما نعرفه هو ما نملكه لا ما نحفظه).
- نادر وهبة: (... البحث الإجرائي ينبع من تأملات المعلم واحتياجاته وبهذه الطريقة يصبح المعلم شخصية منتجة لامستهلكاً).
- ديفيد ديفز: (المدارس أماكن لبناء المعرفة وليس أماكن لتوصيلها).
- عبد الرحيم الشيخ: (وعرضه الرائع لتوصيفات المثقف عبر العصور).
- مالك الريماوي: (وأفكاره الجديدة في استكشاف النصوص ومقاربتها تعليمياً، بحيث تصير هذه النصوص أدوات لإنتاج المعاني.)

سالم الحياوي - معلم في مدرسة ذكور إذنا الثانوية

لأنها الفرصة الأولى التي أتيحت لي للمشاركة في مؤتمر تربوي وجدت نفسي في حالة انفعالية يصعب وصفها، إنه لأمر جميل أن يكون للتربية والتربويين مؤتمر تربوي سنوي يستمعون فيه لكل ما هو جديد على صعيد التربية والتعليم، ولذا فهذا المؤتمر هو سبق تربوي يحسب لمركز القطان.

من الناحية التقنية والإدارية كان المؤتمر غاية في التنظيم والدقة: فالتسهيلات المتاحة لنا كمشاركين أكبر من أن توصف، سواء في جودتها أو في وفرتها، أيضاً كانت المواعيد محددة بدقة، وكذلك أسماء الأشخاص المتحدثين، وملخصات للمواضيع التي يتحدثون فيها، ما ترك في انطباعاً بأن كل شيء يسير على ما يرام.

ومن حيث المضمون فقد كانت المواضيع المطروحة في صلب احتياجاتي كمعلم.

إن مواضيع مثل الذكاء العاطفي والدراما في التعليم وتحليل الخطابات هي مواضيع من صلب احتياجاتي.

وعلى سبيل المثال، فان الدراما في التعليم – هذا الحقل المجهول بالنسبة لي – الذي فتحه لنا وسيم الكردي كان من أكبر المفاجئات بالنسبة لي، حيث فتح عيني على إمكانيات هائلة في مجال الدراما واستخدامها في التعليم، فأنا كمعلم لغة إنجليزية، كنت وما زلت أواجه صعوبة بالغة في تعليم اللغة الإنجليزية، وأظن أن ما قدمه الأستاذ وسيم الكردي في هذا المجال سيساعدني في تذليل كثير من العقبات فيما يتعلق بالحوار والتمثيل.

الموضوع الآخر الذي لا بد أن أمر عليه وكان سمة مميزة لهذا المؤتمر، هو الأجواء الديمقراطية التي سادت هذا المؤتمر، حيث الفرصة كانت متاحة أمام أي شخص للتعبير عن وجهة نظره فيما يطرح من قضايا.

إنني فعلا ممتن للقائمين على مركز القطان لهذه الدعوة وأتمنى عليهم أن يجعلوا هذا المؤتمر تقليداً سنوياً نحج إليه كل عام.

وأخيراً، وعلى سبيل النقد البناء، فإنني أريد أن أشير إلى نقطة سببت لي ولبعض زملائي الكثير من الانزعاج، حيث حرمنا من حضور الورش التطبيقية، وخاصة ورشة الدراما التي كنا متشوقين لحضورها، ولما سألنا عن السبب اخبرنا أن هذه الورش للذين سجلوا مسبقاً، ولم نكن نعلم بذلك. ولذلك، فكلنا أمل أن تراعوا في السنوات القادمة أن تكون الورش لمن يرغب من المشاركين.

وأخيراً وليس آخراً أقول هنيئاً لنا ولكم هذا المؤتمر.

أشرف البطران – معلم من منتدى إذنا

انطلاقاً من الإيمان العميق بأهمية التربية في حياة الشعوب، وبخاصة في ظل التطور الذي لحق بمختلف ميادين الحياة، فإننا مدعوون للوقوف والتأمل أكثر من أي وقت مضى في البنى والهياكل التربوية القائمة، هذه هي الرسالة التي حملها شعار المؤتمر: " التربية في سياق ثقافي " .

إن شعار المؤتمر وما قدم فيه من مداخلات فكرية وتربوية يحيل إلى سؤالين مهمين، الأول عن مدى متانة العلاقة بين المدرسة كمؤسسة تربوية والمحيط الاجتماعي الثقافي المتمثل في الأسرة والمجتمع ومخزونهما الثقافي، وكذا المؤسسات الثقافية والفضائيات ووسائل الأعلام.

والسؤال الثاني عن مدى الانسجام بين شعار المؤتمر وما يطبق فعلاً في المدرسة. إن العملية التربوية في الممارسة ما زالت تراوح مكانها، حيث أن النظريات التربوية التقليدية ما زالت سيدة الموقف في التربية.

ولسنا بحاجة للتأكيد أن هذه النظريات التقليدية التي تقيد روح البحث والإطلاع وإبداء الرأي عند الطلبة، كما تساهم في تكريس قيم سلبية كالتسلط والتخويف والحد من الحريات التي تعمل على تربيط أجنحة الخيال والإبداع وتجبرنا على الامتثال لأساليب التلقين والتحفيظ التي آلت إلى عملية التصحر الثقافي الذي نعيشه.

لذلك، لا يمكننا التأسيس لتعليم يتسم بالفاعلية بمعزل عن أساليب التربية الحديثة التي تنمي التفكير المنطقي العلمي، والعمل الجماعي، والقدرة على الابتكار، واحترام آراء الآخرين من خلال وضع التعليم في أجواء حوارية وتأملية نقدية، بعيداً عن أجواء التسلط ومنطلقاً لفضاء الحرية والحقيقة.

الهوامش:

[1] من حوار مع فوكو أجراه برنار هنري ليفي، مقاطع من الحوار مضمنة في كتاب رضوان جودت زيادة، صدى الحداثة، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٣، ص٥٢.